تحف إسلامية من جبل عده
ببلاد النوبة

دكتور
محمد السيد غيطاس (*)

كشفت بعثات التنقيب فى بلاد النوبة خلال الفترة الممتدة بين سنتى ١٩٦٠ و ١٩٨٠ عن آثار أضافت الى معلوماتنا الكثير من الحقائق عن حضارة هذه البلاد التى إمتدت جغرافيا من جنوب أسوان حتى جنوب السودان . ورغم أن ما وصلنا من آثار إسلامية من مواقع التنقيب يعد قليلا إذا قيس بما وصلنا من آثار مسيحية فإن دراسة ما تم الكشف عنه فى بعض المواقع تمدنا بإضافات لها قيمتها عن جوانب تاريخية وفنية مختلفة ، ومن هذه المواقع « جبل عده » الذى كان يقع قرب معبد « أبو عوده » قبالة بلانة ، على بعد حوالى ١٦ كم من الحدود السودانية .

وكانت « عده » من بين المواقع التى عثر بها على المقابر الخاصة بشعب المجموعة المجهولة (المجموعة س) فى العصر المروى . وقد رجح بعض العلماء الذين قاموا بالتنقيب عن هذه المقابر أن هذا الموقع كان مقرا لملوك هذه المجموعة الذين حكموا النوبة من القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس الميلادى (١) .

وشهدت عده خلال عصور إزدهار الممالك المسيحية بالنوبة وبعد إنهيارها أيضا إستيطانا مسيحيا تكشف عنه المقابر والكنائس التى عثر عليها ، ومن بينها كنيسة ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى (٢) . وإذا سلمنا بأن عده هى عمل الدو أو عدوه التى ورد

(*) مدرس بقسم الآثار الإسلامية – كلية الآداب بسوهاج – جامعة أسيوط .

(١) إيمرى ، ولتر : مصر وبلاد النوبة ، ترجمة تحفة حندوسه ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٤٩ ، ٢٥١ .

(٢) Millet, N.B., Gebel Adda : progress Report on the Nubian Expedition of the American Research Centre in Egypt, Inc. Season 1963. fouilles on Nubie II (1961 - 1963), Le Caire, 1967, pp. 123 - 126; Id., Gebel Adda, Actes du II Symposium international sur La Nubie (Fevrier 1 - 3, 1971), Le Caire, 1981, pp. 109 - 122 .

إسمها فى المصادر العربية [١] فإنها بذلك تعد المدينة المحصنة الثالثة بإقليم المريس بعد إبريم وبخراس (فرس) التى إتخذها حاكم الإقليم مقرا مع هاتين المدينتين [٢] . وكان يطلق على هذا الحاكم فى المصادر العربية اسم صاحب الجبل [٣] ، وهو أشهر الحكام الذين نابوا عن الملوك فى أقاليم النوبة الثلاثة عشر ، وكان يطلق عليهم أيضا إسم الملوك [٤] .

ورغم أن من الثابت أن السلطة الفعلية فى بلاد النوبة فى القرن الخامس عشر كانت بيد المسلمين فإن الإكتشافات الأثرية تشير الى وجود جماعة مسيحية فى عده كان يحكمها ملك مسيحى يدعى يوئيل Joel . وهذا ما تدلنا عليه الوثائق التى عثر عليها فى قصر إبريم والتى جاء فيها أنه فى سنة ١٩٦٤ م كان أسقف إبريم هو مركى Merki وورد بها إسم الملك المذكور وأنه يحكم فى جبل عده [٥] . وتدلنا على ذلك أيضا وثيقة مشابهة عثر عليها فى جبل عده مؤرخة بسنة ١٤٨٤ م تشير الى نفس الأسقف ونفس الملك وكانا لا يزالان قائمين بعملهما [٦] . كما ورد إسم هذا الملك فى نقش متأخر على الملاط بالممر المؤدى الى البلاطة الشمالية فى كاتدرائية فرس [٧] .

واذا كان قيام أحد الملوك بالحكم فى عده أمرا طبيعيا فى ظل خضوع مملكة مقره للسلطنة المملوكية بعد الحملة التى جردها الظاهر بيبرس فى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م وتمكنت من الإستيلاء على الدو وجزائر ميكائيل [٨] – حيث أصبح بيد السلطان المملوكى

---

(١) المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على) : المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، ط . بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ١٩٠ ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ق ٣ ، نشر محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٣٧ .

(٢) Mileham, G.s., Churches in Lower Nubia, Philadelphia, 1910, pp. 3 ff.

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

(٤) أبو المكارم جرجس بن مسعود : كنائس وأديرة مصر (المنسوب لأبى صالح الأرمنى) ، نشره ايفيتس ، إكسفورد ١٩٨٥ ، ص ١٢٥ .

(٥) Plumley, J.M., New evidence on Christian Nubia in the Light of recent Excavations, In " Nubia Christiana, Tom 1, Warszawa, 1982, p. 20

(٦) Millet, N. , Gebel Adda , Preliminary report 1965 - 66 , JARCE 6, Cairo, 1967 , pp. 53 - 63

(٧) Jakobielski, S., Inscription No. 44, In " Michalowski,K., Faras Wall-Paintings in the Collection of the National Museum in Warsaw, 1974, P. 304

(٨) مصطفى سعد : الإسلام والنوبة القاهرة . ١٩٦٠ ، ص ١٤٩ – ١٥٠

عزل ملوك النوبة وتعيينهم – فإن ما يثير التساؤل هو السماح للملك مسيحى بممارسة سلطاته بعد أن إستمرت الحملات المملوكية على بلاد النوبة حتى تهيأ لها القضاء تماما على مملكة مقرة المسيحية فى سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) (١) .

والحق أن وجود المسلمين بعده يسبق هذا التاريخ المتأخر الذى شهد نهاية ممالك النوبة المسيحية . وهذا ما تدلنا عليه الإكتشافات الأثرية وما وصلنا من تحف عثر عليها بهذا الموقع شأنه فى ذلك شأن مواقع أخرى فقد عثر به على مقابر إسلامية تميزت بقبابها المشيدة بالأجر (٢) ، وهى نمط وجد فى أنحاء مختلفة من النوبة الشمالية ، ويشبه ما يوجد فى جبانة أسوان (٣) . كما عثر على شواهد قبور إسلامية لوحظ أن المسيحيين قد استخدموها فى تدعيم أبنيتهم المتأخرة (٤) ، منها شاهد قبر بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة لحسن بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب بن غياث المتوفى فى يوم الثلاثاء الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) (٥) .

وتؤكد هذه الإكتشافات وغيرها مما عثر عليه فى مواقع أخرى ما ورد فى المصادر التاريخية عن الإزدياد الكبير الذى حدث فى حجم القبائل العربية التى هاجرت إلى بلاد النوبة بعد ظهور الإسلام ، وهى القبائل التى عملت بالتجارة واستخراج المعادن (٦) . كما تدلنا هذه الإكتشافات على أن عقد الصلح (البقط) لم يحل دون توغل العرب وإقامتهم فى بلاد النوبة رغم ماورد فيه من وجوب دخول أهل النوبة مصر مجتازين غير مقيمين فيها ودخول المسلمين بلاد النوبة مجتازين غير مقيمين فيها أيضا (٧) .

---

(١) أنظر : عطية القوصى : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٩٧

(٢) El - Emir, M., Fouilles de L' Université d' Alexandrie à Gebel Adda (1959) , Fouilles en nubie I (1959 - 1961) , Le Caire, 1963 , P. 38 ; Millet, Fouilles en Nubie II, p. 124.

(٣) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥٦٥ و ٥٦٧ ، الشكلان ٢٠١ ، ٢٠٢

(٤) Millet, Actes du II Symposium, P. 117

(٥) الرقم فى سجلات المتحف ٢٤٠٨٦

(٦) المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٤

(٧) عن هذه الإتفاقية وتفسير لفظ « البقط » أنظر : البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : فتوح البلدان ، نشره صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، القسم الأول ، ص ٢٨٠ ؛ المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص ١٩٩ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « بقط » ؛ مصطفى مسعد : المرجع السابق ، ص ١١٢ ، حاشية ٢٢ .

وتمدنا التحف التى عثر عليها فى عدة أيضا بشواهد تؤكد إزدياد النشاط التجارى بين مصر وبلاد النوبة مثلما تدعم حقيقة الإنتشار المبكر للمسلمين فى هذه البلاد . وكانت تجارة النوبة مع مصر وغيرها من البلدان تتم عبر منافذ عديدة منها جزيرة بلاق التى كانت تبعد بمقدار أربعة أميال عن أسوان ، وكانت تنتهى إليها سفن النوبة وسفن المسلمين ، ومنها أيضا طرق القوافل ، والموانى الواقعة على البحر الأحمر كباضع وعيذاب وسواكن [1] حيث تم تصدير ما تنتجه النوبة كسن الفيل وريش النعام والماشية والعنبر والمسك ، وتم إستيراد المنتجات المصنوعة كالمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية وكذلك الأسلحة والخيول والمواد الغذائية المختلفة . ورغم أن كثيرا من المواد التى تم إستيرادها ليس مما يترك أثرا يمكن العثور عليه من خلال عمليات التنقيب فإن ما وصلنا يشير إلى هذا النشاط التجارى مع مصر بوجه خاص ، ومن ذلك الآنية الفخارية والخزفية وبعض المنسوجات .

ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة مما ورد إليه من جبل عده ببعض الصحون من النوع المعروف بإسم خزف الفيوم ، منها صحن [2] زخرفت بطانته بتقسيمها إلى مناطق شبه مثلثة تشع من المركز ، وتكونها خطوط سميكة باللون البنفسجى ، أما المناطق المثلثة فقد لونت باللون الأصفر أو الأخضر ، والألوان كما هو سائد فى هذا النوع من الخزف سائلة وممتزجة . ومن هذه الصحون أيضا صحنان صغيران [3] زخرفت بطانة كل منهما ببقع سائلة باللون الأخضر الزيتى والبنفسجى على أرضية زبدية اللون [4] .

ومن المنسوجات التى يحتفظ بها متحف الفن الإسلامى بالقاهرة والواردة من جبل عدة قطعة من نسيج الكتان لها أهمية خاصة ، وهى مشمعة وبالية وذات لون أبيض مائل إلى الإصفرار [5] . وتكمن أهمية هذه القطعة فيما كتب على أحد طرفيها بمداد أسود ، إذ نقرأ كلمة « بقط » الأمر الذى يشير إلى إمداد النوبة بالنسيج وفقا لعقد الصلح « البقط » وإن لم يرد ذلك فى النص الذى أورده المقريزى لهذا العقد . وواقع الأمر أن نص هذه

---

(١) صلاح الدين الشامى : الموانى السودانية ، (الألف كتاب ١٩٦١) ، ص ١٠٧,٩١,٧٣

(٢) رقم السجل ٢٣٨٢٦ ، القطر ١٢,٢ سم .

(٣) رقم السجل ٢٣٨٢٧/١ , ٢٣٨٢٧/٢ ، والقطر ١٣ سم و١٣,٧ سم على التوالى .

(٤) يحتفظ المتحف أيضا من هذا النوع بطبق آخر (رقم السجل ٢٣٨٢٨) وقد عثر على هذا النوع من الخزف فى مواقع أخرى مثل قصر إبريمَ ، ومنه نصف صحن صغير (رقم السجل ٢٦٢٣٩) .

(٥) رقم السجل ٢٣٩٠٢ ، طول ٢٧ سم ، عرض ٩ سم .

الأتفاقية – كما أورده المقريزى – لم يشر إلى التزام المسلمين بدفع شىء إلى أهل النوبة ، وإنما جرى العرف على إمدادهم بالحبوب والثياب والخمر بعد وعد من عبد الله بن سعد بن أبى السرح لعظيم النوبة « قليدوروث » [١] ، كما يؤكد سريان هذا العرف ما أورده البلاذرى من أن الخليفة المهدى « أمر بإلزام النوبة فى كل سنة ثلاث مئة رأس وستين رأسا وزرافة ، على أن يعطوا قمحا وخل وخمر وثيابا وفرشا أو قيمته » [٢] .

وإذا كان ما تقدم يشير فى وضوح إلى الوجود المبكر للمسلمين فى بلاد النوبة ويعكس ما حدث من زيادة فى النشاط التجارى وتنفيذ لإتفاقية البقط فإن ما وصلنا من تحف أخرى عثر عليها فى عده وتنتمى إلى العصر المملوكى يؤكد إنتشار المسلمين فى هذه البلاد ويعكس بعضه نشاط أمراء المماليك الذين توالت حملاتهم لتحقيق السيطرة الكاملة على بلاد النوبة . وتستحق بعض هذهالتحف دراسة أكثر تفصيلا .

(أ) قلة من الفخار الأحمر

يحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة مما وصل إليه من حفائر جبل عده ببعض الأوانى المملوكية ، منها قلة من الفخار الأحمر السميك والمصقول [٣] ، وهى ذات بدن كروى تقريبا وقاعدة صغيرة منخفضة ورقبة رفيعة على جانبيها مقبضان متقابلان ، ويزخرف بدنها بلون بنفسجى داكن رنكان مركبان [٤] يعلو أحدهما الآخر . ويلاحظ أن الرنكين بدون مناطق دائرية أو غير دائرية تحيط بهما . والرنك العلوى عبارة عن سيف مستقيم

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص ٢٠٠

(٢) أنظر : فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص ٢٨١

(٣) رقم السجل ٢٣٨٣١ ، أرتفاع ٢٤,٨ سم ، قطر الفوهة ٣,٥ سم .

(٤) يحتوى الرنك المركب على أكثر من علامة تشير إلى ما تقلده الأمير من وظائف وقد حدث فى القرن التاسع الهجرى أن أصبحت غير شخصية وإنما رنوك جماعات من المماليك تنتسب كل جماعة منهم إلى أحد السلاطين أو أحد الأمراء كالمماليك المؤيدية والأشرفية والظاهرية . أنظر :

محمد مصطفى : الرنوك فى عصر المماليك ، مجلة الرسالة ، العدد ٤٠ ، مارس ١٩٤١ ، ص ٢٧٠ ؛

Mayer, L. A. , Saracenic Heraldry, Oxford 1933 , PP. 29 FF.

وتبدأ الرنوك المركبة بعلامتين أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون ، كما يظهر على مبخرة من النحاس بالمتحف الأهلى بفلورنسا ٧٤٠ هـ (١٣٤١ م) بها رنك يمثل بقجة أسفل نسر ينظر إلى اليسار : أنظر

أحمد عبد الرازق أحمد : الرنوك على عصر سلاطين المماليك ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢١ ، ١٩٧٤ ، ص ٩٠ – ٩١

ذى مقبض معقوف ، والسيف فى وضع أفقى تقريبا ، ويعلوه هلال أو حدوة على جانبيها شكلان صغيران يقتربان من الشكل الذى إتخذته زهرة اللوتس أو الزنبق فى بعض الرنوك . أما الرنك السفلى فيتكون من سيفين مستقيمين فى وضع موروب ، ويحصران بينهما كأسا (اللوحة ١ والشكل ١ أ و ب) .

وفى هذين الرنكين ثلاثة رموز لثلاث وظائف إلى جانب الزخرفة البسيطة التى تشبه فى شكلها زهرة اللوتس أو الزنبق . أما الرموز الثلاثة فهى السيف وحـــدوة الفرس والكأس .

والسيف رنك السلحدار [١] ، فقد جرت العادة أنه إذا نصب السلحدار أميرا منح رنكا أو شعارا على هيئة سلاح كالسيف أو الخنجر [٢] ، وإن كان بعض السلحدارية قد اتخذ رنكا آخر على شكل درع به ثلاث مناطق ، أو على شكل وريدة ، ومثل السيف أحيانا على هيئة حربة مستقيمة لها عارضة بعد المقبضين ، كما مثل بشكل سيف مستقيم طويل له ذؤابتان عند المقبض ، ويظهر السيف فى بعض الرنوك منحنيا ، ويمثل مائلا أو قائما . وقد يضم الرنك سيفا [٣] ، أو سيفين أحدهما فى المنطقة العليا والآخر فى السفلى من الرنك [٤] . وقد يظهر مركبا مع شعار آخر – كما هى الحال بالرنك العلوى على الآنية التى نتحدث عنها [٥] – أو نرى سيفين يحصران بينهما كأسا – كما فى الرنك السفلى من هذه الآنية – أو يحصران بينهما حدوة [٦] ، أو بقجة [٧] ، أو وريدة [٨] .

---

(١) أنظر « سلحدار » فى : حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج٢ ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٥٩٦ – ٦٠٢

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩٧ ؛ وانظر أيضا : Mayer, Op. Cit., P. 13

(٣) Mayer, Op. Cit., Pl. IX,7

(٤) Ibid., Pl. IX, 16

(٥) Ibid., Pl.XI, 3 and 7

(٦) Ibid., Pl.X.1

(٧) Ibid., Pl.XI, 9 - 10

والبقجة رنك الجمدار . أنظر : حسن الباشا : المرجع السابق ، ج١ (١٩٦٥) ، ص ٣٥٦ – ٣٥٧ ؛ وأنظر أيضا : أحمد السعيد سليمان : تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص٤١–٤٢

(٨) Mayer, Op. Cit., Pl XI, 11;

أحمد عبد الرازق أحمد : المرجع السابق ، ص ٦٩

أما حدوة الفرس فكانت رنكا للأمير أخور [١] عند تأميره ؛ إذ أتخذت رنكا له فى عهد خوارزمشاه محمد بن تكش ، ومن المحتمل أنه ظل كذلك فى عهد السلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك ، على أن هناك رنوكا بهيئة مختلفة عن حدوة الفرس بأسماء بعض الأمير أخورية من عصر المماليك [٢] .

وتظهر حدوة الفرس على هيئة دائرة مفتوحة من أعلاها أو أسفلها ، وتشبه فى شكلها الهلال ، وتأتى فى الغالب مع شعارات أخرى مثل السيف – كما يظهر على الآنية التى نتحدث عنها – أو البقجة أو مع بعض الحيوانات [٣] ، ويختفى هذا الشعار مع ظهور الرنوك المركبة ذات المناطق الثلاث [٤] ، وممن كان هذا الشعار رنكا لهم « على بن هلال الدولة » [٥] كما يظهر على صينية كبيرة بمجموعة هرارى بلندن نقش عليها أسمه [٦] .

وفيمايتعلق بالكأس والذى يعد من أكثر الشعارات ظهورا على التحف المملوكية فهو رنك الساقى [٧] ، وتثبت ذلك دراسة الكتابات الأثرية الخاصة بالسقاة وما صحبها من رنوك ، وما ورد بشأن سير أصحابها فى الكتب والمؤلفات [٨] . وقد مثل الكأس مفردا ، أو مركبا من كأس ورموز أخرى كما يظهر فى الرنك السفلى بالأنية التى نتحدث عنها (الشكل ١ ب) ، وكما يظهر بالشكل (٢) .

---

(١) عن هذه الوظيفة أنظر : حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ١٧٤ – ١٨٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٧

(٣) أحمد عبد الرازق أحمد : المرجع السابق ، ص ٧١

(٤) Mayer, Op. Cit., P.25

(٥) من المرجح أنه « علاء الدين على بن هلال الدولة » وهو من شيزر . وقد شغل وظيفة « شاد العمارة » وأشرف على إصلاحات الحرم المكى فى شوال سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) وعند عودته من مكة عين فى وظيفة « شاد الدواوين » وهو المنصب الذى شغله حتى الخامس من رجب سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) عندما صودرت أملاكه وسجن فى الإسكندرية . وتوفى فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ م) فى شيزر بعد الإفراج عنه . أنظر :

Mayer, Op. Cit., P. 54

(٦) Mayer, Op. Cit., Pl. XIII,5

(٧) عن وظيفة الساقى أنظر : حسن الباشا : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٥٧٧ – ٥٨٦

(٨) المرجع السابق ، ص ٥٧٨ ؛

Mayer, Op. Cit., Pp. 1OF

أما زهرة اللوتس أو الزنبق بالرنك العلوى على هذه الآنية فتظهر بعيده إلى حد ما عن الشكل المألوف لهذه الزهرة ، غير أننا نلاحظ – بوجه عام – أن تمثيلها على كثير من التحف يبدو مختلفا من ناحية التكوين وشكل الوريقات ، والنهايات العليا والسفلى لها [١] . وتظهر هذه الزهرة للمرة الأولى فى الرنوك الإسلامية كشعار شخصى لنور الدين محمود بن زنكى ؛ إذ تظهر على محراب مدرسته بدمشق والمشيدة بين سنتى ٥٤٩،٥٦٩هـ (١١٥٤،١١٧٣ م) ، وعلى عمودين بالمسجد الجامع فى حمص [٢] .

وإذا وضعنا فى الإعتبار هيئة الرنكين المركبين المنفذين على القلة الفخارية التى نتحدث عنها وما بهما من شعارات فإن القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) يعد تاريخا مناسبا لهذه الآنية .

(٢) صحن باسم « جان بردى »

كشفت أعمال التنقيب فى جبل عده أيضا عن صحن من النحاس الأحمر المبيض بالقصدير ، وهو محفوظ حاليا بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة [٣] (اللوحة ٢) . وزخارف هذا الصحن منفذة بالحز ، وتزين حافته المسطحة ثمانى مناطق مستطيلة زخرفت أربع منها بزخرفة هندسية مضفورة تتبادل مع الأربع مناطق الأخرى وهى مزينة بأوراق خنجرية صغيرة تشكل هيئة مثلثات متجاورة تحصر بداخلها وفيما بينها شكلا زخرفيا مثلثا ذا أضلاع مقعرة . ويفصل بين هذه المناطق المستطيلة ثمانى جامات بداخل كل منها زخرفة بشكل الصليب المعقوف .

وبوسط الصحن دائرة قطرها ٩ سم بداخلها دائرة أخرى قطرها ٤،٥ سم وبداخل هذه الدائرة الأخيرة رنك مركب يتكون من ثلاث مناطق أفقية ، بالمنطقة العليا شكل بقجة ، وفى الوسطى كأس بها دواة بين فرعى سروال أو قرنى بارود ، وفى السفلى كأس صغير ، وأرضية الرنك مزخرفة بتفريعات نباتية ويحيط بالرنك فى الدائرة الخارجية كتابة بالخط الثلث نصها :

---

(١) انظر : Mayer, Op. Cit., PL. V,17

(٢) Ibid., Pl. XIX,3;

أحمد عبد الرازق أحمد : المرجع السابق ، ص ٨٢

(٣) رقم السجل ٢٣٩٠٧ القطر ٣٧،٥ سم ، الإرتفاع ٤،٥ سم . انظر : « معرض الفن الإسلامى فى مصر بفندق سمير اميس » القاهرة ١٩٦٩ ، رقم الدليل ٩٠

« مما عمل برسم المقر العالى المولوى الأميرى الكبيرى السيفى جان بردى أمير دوادر (هكذا) ثانى بطرابلس عز أنصاره » .

والصحن مثال لما وصلت إليه حال التحف المعدنية المملوكية إعتبارا من القرن التاسع الهجرى عندما بدأت صناعتها فى الضعف بعد أن بلغت فى عصر المماليك البحرية قمة نضجها الصناعى والفنى [١] . فقد انصرف الناس عن إستعمال المنتجات النحاسية المكفتة مما أدى إلى ركود الإنتاج فى حوانيت سوق الكفتيين ، وهذا مالاحظه المقريزى (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) بعد أن شهدت هذه الصناعة فى مصر رواجا عظيما ، وكان للناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة ؛ إذ يذكر أنه قد « قل أستعمال الناس فى زمننا هذا للنحاس المكفت وعز وجوده فإن قوما لهم عدة سنين قد تصدوا لشراء ما يباع منه وتنحية الكفت عنه طلبا للفائدة ، وبقى بهذا السوق إلى يومنا هذا بقية من صناع الكفت قليلة » [٢] . وكانت محصلة اضمحلال هذه الصناعة أن شاعت طريقة الحفر فى المعدن ، واتسع المجال لشيوع استخدام النحاس الأحمر المبيض بطبقة رقيقة من القصدير ، هذا مع استثناء ما حدث من نهضة محدودة – من الناحية الزمنية – فى عصر السلطان قايتباى (٨٧٢ – ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ – ١٤٩٦ م) ، حيث عاد إنتاج الأوانى النحاسية الصفراء والمكفتة بالفضة والذهب لقصر السلطان ، ومنها تلك التى يظهر عليها إسم السلطان أو زوجته وأمرائه [٤] .

ويحمل النص الكتابى والرنك بصحن جان بردى الملامح الواضحة للتحف المعدنية فى أواخر عصر المماليك الجراكسة .

أما النص الكتابى فيتضمن إسم « جان بردى » وألقابه ووظيفته والدعاء له . وأكثر أصحاب هذه الأسم شهرة فى أواخر عصر المماليك الجراكسة هو « جان بردى الغزالى » صاحب الدور البارز فى أحداث الفتح العثمانى لمصر والشام ، غير أننا لا نجد فى المصادر التاريخية المعاصرة ما يشير إلى أنه قد عمل فى وظيفة أمير دوادار ثان بطرابلس ، ورغم ذلك فإنه يظل فى ضوء سيرته من بين الشخصيات التى يمكن نسبة الصحن إليها .

---

(١) حسين عبد الرحيم عليوه : « المعادن » فى « القاهرة ، تاريخها ، فنونها ، آثارها لحسن الباشا وآخرين » ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٣٧٧

(٢) الخطط ، ج٢ ، ص ١٠٥

(٣) Atil, E., Renaissance of Islam, Art of the Mamluks, Washington 1981 , p. 53

وكان جان بردى الغزالى – وفقا لما يذكره ابن إياس – من مماليك الأشرف قايتباى [١]، أشتراه وأعتقه وصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم قرره الأمير تغرى بردى الأستادار شادا [٢] فى ضيعة بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب إليها ، وجعله الأشرف قايتباى جمدارا [٣] ، وقرره فى كشف الشرقية [٤]

ولم يكن جان بردى الغزالى قد رقى إلى رتبة « أمير عشرة » [٥] عند توليه لهذه الوظيفة وإنما رقى إليها – كما يشير ابن إياس – فى أواخر دولة الناصر محمد بن قايتباى [٦] (٩٠١ – ٩٠٤ هـ / ١٤٩٦ –١٤٩٨ م) . وفى دولة السلطان الغورى (٩٠٦–٩٢٢هـ/ ١٥٠١ – ١٥١٦ م) عين الغزالى فى وظيفة محتسب القاهرة [٧] ، وذلك فى السادس من شوال سنة ٩٠٦ هـ ، وأستمر شاغلا لها حتى شهر محرم من سنة ٩٠٧ هـ .

وتبدأ الوظائف التى تولاها جان بردى الغزالى خارج مصر – فيما أورده ابن إياس – بوظيفة حجوبية الحجاب [٨] بحلب عندما أصدر السلطان الغورى قراره بذلك فى جمادى

---

(١) إبن إياس (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ٥ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٨٣ – ٣٨٤

(٢) عن هذه الوظيفة أنظر : حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، ج٢ . ص ٦٠٤

(٣) عن « الجمدار » أنظر : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٥٦ – ٣٥٧

(٤) عن وظيفة « الكاشف » أنظر : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٢٧ – ٩٣٢ . وتتعدد إشارات ابن إياس إلى جان بردى الغزالى بإعتباره « كاشف الشرقية » فى أحداث شوال سنة ٩٠٢ هـ وشعبان سنة ٩٠٤ هـ وعند القبض عليه ونفيه واختفائه فى رجب سنة ٩٠٦ هـ . أنظر : ابن إياس ، المصدر السابق ، ج٣ (القاهرة ١٩٨٤) ، ص ٣٦١ و ٤١١, ٤٦٩

(٥) عن هذه الرتبة أنظر : حسن الباشا : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٣٧ – ٢٤١

(٦) بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٣٨٣

ويذكر ابن إياس (المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٠٩) أن السلطان الظاهر قانصوه من قانصوه الأشرفى (٩٠٤–٩٠٥هـ/١٤٩٨–١٥٠٠م) وقد أنعم فى جمادى الأولى سنة ٩٠٤ هـ على « جان بردى الأشقر الكاشف » بإمرة عشرة . وفى نفس المصدر (ج٣ ، ص ٤٦١) إشارة إلى جان بردى الغزالى بإعتباره « أمير عشرة » فى وقت سلطنة العادل طومان باى فى جمادى الآخر سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١م).

(٧) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٤ (القاهرة ١٩٨٤) ، ص ٤و١٨ ؛ ج٥ ، ص ٣٨٣.

ويلاحظ هنا أن الوظيفة اسندت إلى أحد الأمراء من العسكريين ، وليس إلى أحد القضاة أو العلماء أو غيرهم ممن يتولون الوظائف الدينية وكان السلطان المؤيد شيخ (٨١٥–٨٢٤هـ/١٤١٢–١٤٢١م) أول من أسندها إلى أحد العسكريين وهو الأمير سيف الدين منكلى بغا أمير حاجب مضافة إلى الحجوبية . أنظر : حسن الباشا : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٠٢٧ – ١٠٣٩

(٨) عن هذه الوظيفة أنظر : حسن الباشا : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٨٠ وما بعدها .

الأولى سنة ٩٠٧ هـ . وكان هذا بعد ظهور الغزالى عقب إختفائه مرة أخرى مع مجموعة من الأمراء [١] ، وتعنى وظيفة حاجب الحجاب كبير الحجاب ورئيسهم . واستعملت بهذه الدلالة فى عصر المماليك سواء فى الديار المصرية أو فى النيابات الشامية مثل دمشق وحلب ولو أن التعريف الرسمى لهذه الوظيفة كان « أمير حاجب » ، كما كان يطلق عليه أيضا أسم أمير حاجب الحجاب . وكان يشغل هذه الوظيفة أمير برتبة أمير مائة مقدم ألف [٢] . ولم ترد فى المصادر التاريخية إشارة واضحة إلى ترقية الغزالى إلى رتبة أمير طبلخاناه أو أمير مائة [٣] رغم أن الوظائف التى تولاها تحتم ترقيه إليها . ويذكر ابن إياس بعد ذلك أن الغورى قد نقل جان بردى الغزالى من حجوبية الحجاب بحلب إلى نيابة صفد فى سنة سبع عشرة وتسعمائة للهجرة [٤] ، بينما يذكر فى موضع آخر أن ذلك قد تم فى رجب سنة ٩١٥ هـ[٥]، وأنه قد أضيفت إليه نيابة الكرك فى جمادى الآخرة سنة ٩١٦ هـ[٦] . غير أن ما أورده ابن طولون يثبت أن الغزالى لم يشغل وظيفته فى حلب طوال الفترة الممتدة من سنة ٩٠٧ هـ إلى ٩١٧ هـ أو حتى ٩١٥ هـ كما يذكر ابن إياس ؛ إذ يشير إلى قدومه من حلب إلى دمشق فى السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٩١١ هـ ليتولى الحجوبية الكبرى ، وإلى أنه كان فى سنة ٩١٥ هـ الحاجب الكبير بدمشق [٧] ومعه نيابة القدس وكرك الشوبك [٨] . أما تولى الغزالى لنيابة صفد فتأتى الإشارة إليها عند ابن

---

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٢-٢٣ ؛ ج٥ ، ص ٣٨٣

(٢) حسن الباشا : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٦

(٣) عن أمراء الطبلخانات وأمراء المئين وماتولوه من وظائف انظر :
حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ وما بعدها ، وص ٢٥٢ - ٢٥٣

(٤) بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٣٨٣

(٥) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٦٢

(٦) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٩٢

(٧) كان الحاجب الكبير أو حاجب الحجاب فى دمشق عادة برتبة أمير مائة مقدم ألف ، وكان فى المرتبة الثانية بعد النائب . أنظر :
حسن الباشا : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

(٨) ابن طولون (شمس الدين محمد) : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام) ، حققه محمد مصطفى ، القسم الأول (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ٢٩٣و٣٣٣ . وكانت نيابة الكرك إحدى النيابات الكبار ، وقد تطورت عن مملكة أيوبية فى سنة ٦٧١ هـ فى عهد بيبرس . وكان بها فى عصر المماليك أربع ولايات إحداها الشوبك ولذلك كان نائبها يسمى أحيانا نائب الكرك والشوبك ، أو كما هو وارد هنا كرك الشوبك وسمى أحيانا بنائب السلطنة بالكرك المحروس . وقد لعبت هذه النيابة دورا مهما فى عصر المماليك نظرا لأهميتها الأستراتيجية .
أنظر : حسن الباشا : المرجع السابق ، ج٣ ، ص١٢٥٣ - ١٢٥٥

طولـون بين أحـداث سـنة ٩١٧ هـ [١] . وكان إنتقال الغـزالى من نيابة صـفد إلى نيابة حماة [٢] فى ربيع الآخر سـنة ٩١٨ هـ ، وظل بها حتى هزيمة الغورى ووفـاته [٣] . وفى الخامس من شعبان سنة ٩٢٢ هـ نودى لجان بردى الغزالى بدمشق بنيابة الشام [٤] .

ويذكر ابن طولون أن السلطان سليم أرسل نائبه على الشام واسمه يونس باشا فى أخر شعبـان سنة ٩٢٢ هـ غير أن الأشرف طومان باى (٩٢٢/٩٢٣ هـ / ١٥١٦-١٥١٧) جعل جان بـردى الغـزالى نـائبا لدمشـق ، أى الشـام فى ١٥ رمـضان سـنة ٩٢٢ هـ ، وفى صـفر سـنة ٩٢٣ هـ جـعله كـافلا لـلشـام ، وهـى أعلى درجـات النـيابة [٥] ، وبـعد الـفتح العثمانى لمصر والشام ، وفى صفر سنة ٩٢٤ هـ أقر السلطان سليم بنيابة الشام للغزالى ، وجعل له التحدث على الشـام وحماة وحـمص وصيـدا وبيروت وبيت المقدس ورملة لد والكرك وغير ذلك من الأعمال الشامية والترابلسية [٦] . وفى العاشر من رمضان من نفس

---

(١) ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٣٥٣ .

وقد ابتدأت نيابة صفد منذ أن استولى عليها بيبرس من الإفرنج فى سنة ٦٦٤ هـ . ووظيفة نائب صفد من وظائف نواب السلطنة بالممـاليك الشامية فى عصر المماليك . وكان يقال له أيضا نائب المملكة الصفدية ، ونائب السلطنة بالمماليك الصفدية ، وكافل المملكة الصفدية ، وكان فى العادة من مقدمى الألوف . أنظر :

ابن إياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٦١ ؛ حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ١٢٤٥ - ١٢٤٦

وعن النيابة ودرجاتها فى عصر المماليك أنظر :

المرجع السابق ، ص ١٢٢٤ - ١٢٢٥ ، ١٢٣١

(٢) كانت نيابة حماة نيابة جليلة فى المرتبة الثانية من حلب فى الألقاب ولكن أقل من طرابلس فى الإطلاقات الكبار عليها، وكان نائبها من أكابر الأمراء المقدمين ، ولكنه فى المرتبة الثانية دون نائب طرابلس وإن كان مساويا له فى المكاتبة من الأبواب السلطانية .

أنظر : المرجع السابق ، ص ١٢٤٠ - ١٢٤١

(٣) إبن إياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٦٧ ؛ ج٥ ، ص ٤ ؛

إبن طولون : المصدر السابق ، القسم الثانى (القاهرة ١٩٦٤) ، ص ٢٤

(٤) ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٢٥

وكانت نيابة الشام من أجل نيابات الممالك الشامية فى عصر المماليك وأعلاها رتبة ، وكان نائبها من أكابر مقدمى الألوف . أنظر :

حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ١٢٤٣ - ١٢٤٥

(٥) ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٢٩، ٣٥، ٤٤

(٦) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٢٠٨، ٢٤٤ ؛ ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٨٢

السنة صدر مرسوم فيه إشارة إلى توليته على الجامع الأموى كما جرت العادة فى أيام الجراكسة بأن يكون ناظره نائب الشام [١]

ولم يكتف الغزالى بما تحقق له من سلطان ونفوذ فقد أعلن نفسه سلطانا على الشام ، وأمر الخطباء أن يخطبوا بإسمه على منابر دمشق وضربت السكة بإسمه ، وتلقب بالملك الأشرف أبى الفتوحات ، وكان ذلك كمايذكر ابن إياس فى ذى القعدة سنة ٩٢٦ هـ ، أو فى الثالث والعشرين من صفر سنة ٩٢٧ هـ كما يذكر الغزى وابن العماد ، ثم كانت النهاية على يد السلطان سليمان الذى أرسل حملة لردع الغزالى فى الثانى والعشرين من صفر سنة ٩٢٧هـ وفقا لما يحدده ابن إياس أو السابع والعشرين من صفر سنة ٩٢٧ هـ كما يذكر الغزى وابن العماد ، وكانت المعركة التى قتل فيها الغزالى ونهب بعدها وطاقه أى خيمته أو معسكره [٢] .

ولعل فيما تقدم ما يشير إلى بروز شخصية الغزالى ومدى أهمية ما تقلده من وظائف ، غير أن هذا كله لا يمنعنا من ملاحظة ما وجد من نقص وتباين فى تتبع سيرته ، وبخاصة فيما يتعلق بالفترة التى سبقت توليه نيابة صفد . ورغم هذا فإن جان بردى الغزالى هو - كما ذكرنا - أكثر من سمى باسم « جان بردى » شهرة فى نهاية عصر المماليك الجراكسة . والحق أننا لا نجد فيما أتيح لنا من مصادر تاريخية إشارة إلى شخصية أخرى تحمل هذا الإسم وتستحق الذكر سوى تلك التى عن « جان بردى » الذى عين « رأس نوبة ثانى » [٣] فى جمادى الأولى سنة ٩٠٦ هـ [٤] ، ولم يرد عنه شىء سوى

---

(١) ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٨٥

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٦٨و٣٧٠ و ٣٨٢ ؛ الغزى (نجم الدين) : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، حققه جبرائيل سليمان جبور ، ج١ ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الفكر (بدون تاريخ) ، مج ٤ ، ج٨ ، ص ١٥١

وربما كان العثور على صحن جان بردى فى عدة نتيجة وقوعه فى يد أحد جنود الحاميات العثمانية التى شاركت فى نهب وطاق الغزالى ، والتى ربما أقامت بعد ذلك فى النوبة مثل جنود البوسنة فى قصر إبريم ، هذا إذا صح افتراض أن الصحن للغزالى .

(٣) كان يختار لوظيفة رأس نوبة فى العادة أمراء من الخاصكية نظرا لأهميتها .

وكان عددهم فى أول الأمر أربعة ، ثم زادوا إلى أكثر من عشرة . وكان هؤلاء الأمراء يتفاوتون من حيث رتبهم حسب أهميتهم ، فكان كبيرهم أمير مائة مقدم ألف ، ويليه ثلاثة من أمراء الطبلخانات ، ويأتى بعدهم أمراء عشرينات وعشراوات وخمسات .

ورأس نوبة ثان هو أعلى رؤوس النوب الأصغر . أنظر :

حسن الباشا : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٥٤٥ - ٥٤٩

(٤) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٥٥

هذه الإشارة ، ولا شك أنه شخص آخر غير جان بردى الغزالى لأن الأخير كان لا يزال فى وظيفة « كاشف الشرقية » فى رجب سنة ٩٠٦هـ ، وكان لا يزال أمير عشرة بينما جرت العادة أن يتولى وظيفة « رأس نوبةثان » أمير طبلخاناه .

وتلقى الألقاب الواردة بالنص الكتابى المحفور على صحن جان بردى مزيدا من الضوء على صاحبها ، وعلى تاريخ صناعة الصحن .

وتبدأ ألقاب جان بردى بلقب الكناية المكانية « المقر » وهو من الألقاب الأصول التى شاع استعمالها على الآثار والمكاتبات ، وكان يلى فى المرتبة تنازليا لقب « المقام » . وقد استعمل لقب « المقر العالى » فى العهد إلى المنصور قلاوون بالسلطة سنة ٦٧٨ هـ ، غير أن اللقب لم يحتفظ بمكانته الرفيعة مدة طويلة ، فسرعان ما انخفض مركزه ، ومن ثم ظل لقب « المقام » وحده للسلاطين . ومن المرجح أن لقب « المقر » قد استعمل كذلك فى بداية عصر المماليك لكبار الأمراء . ولم يستعمل هذا اللقب للسلاطين المماليك فى القرن الثامن وما بعده بل أخذت رتبته فى النزول شيئا فشيئا ، واختص به كبار الأمراء وأعيان الوزراء من العسكريين فى المكاتبات الرسمية ، واستعمل للمدنيين من الوزراء والكتاب فى المكاتبات غير الرسمية . وأجيز استعماله فى القرن التاسع الهجرى لأصحاب الوظائف الدينية ومشايخ الصوفية وأهل الصلاح فى المكاتبات غير الرسمية [١] .

ويوصف لقب المقر هنا « بالعالى » وهو من الألقاب الفروع التى تتبع اللقب الأصل ، وكان من الجائز أن يصف الألقاب الأصول جميعها كالمقر والمقام والجناب والمجلس ، وربما سبق بلقب تابع آخر مثل الأشرف والشريف والكريم [٢] .

ويلى هذا لقب « المولوى » ، وهو استعمال للقب « المولى » مضافا إلى ياء النسب . وقد أطلق فى عصر السلاجقة على السلطان ، أما فى عصر المماليك فقد صار – فضلا عن استعماله للسلاطين – يرد ضمن ألقاب كبار رجال الدولة من الأمراء والمدنيين . وكان يتقدم أحيانا – كما هى الحال فى ألقاب جان بردى – على اللقب الدال على النوع أو الوضع كالأميرى فيقال « المقر الشريف العالى المولوى الأميرى » [٣] .

---

(١) أنظر : حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٤٨٩ – ٤٩٣

(٢) أنظر : المرجع السابق ، ص ٣٩٠ – ٣٩١

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٩ ، ٥١٦ – ٥١٨

وكانت ألقاب « المقر العالى المولوى » كما وردت على الصحن من ألقاب الطبقة الثالثة من ألقاب أمراء المئين بالشام وحلب وطرابلس ، وكان أمراء المئين يقسمون إلى طبقات فيما بينهم وتفاوتت ألقابهم تبعا لذلك (١) .

أما لقب الأميرى فمن الألقاب الفروع التى تشير إلى طبقة الملقب و « الأميرى الكبيرى » هما النسبة إلى « الأمير الكبير » ، وكانا يطلقان على قدامى الأمراء . ويعد لقب « الأميرى الكبيرى » أعلى من « الأمير الكبير » ، ولذلك يلحق اللقب الأول « بالمقر » والثانى « بالمجلس » ، فقد كانت إضافة ياء النسبة إلى اللقب ترفع رتبته فى حالة استعماله لغير السلطان فكانت الكفيلى والكبيرى والأميرى أعلى من الكفيل والكبير والأمير ، ولا يستلزم لقب « أميرى كبيرى » دائما أن يكون صاحبه « أمير كبير » ، كما أن لقب « مولوى » لا يستلزم أن يكون صاحبه دائما « مولانا » (٢) .

ويلى هذا فى سلسلة الألقاب الواردة على الصحن لقب « السيفى » ، والنسبة هنا هى للقب المضاف إلى الدين : « سيف الدين » ، واللقب يأتى هنا قبل الاسم مما يشير إلى أن الملقب يلقب هو نفسه بسيف الدين . وكان الغالب فى ألقاب الترك من الأجناد التلقب « بسيف الدين » لملاءمته لعرفهم فى التسمى بالأسماء التى تشير إلى القوة والشدة والبطش (٣) .

ثم يأتى الأسم العلم لصاحب اللقب وهو « جان بردى » ، ثم يلى ذلك اللقب الدال على الوظيفة بعد الاسم مباشرة وهو « أمير دوادار ثان » . وكان صاحب هذه الوظيفة يتبع أمير دوادار كبير عند السلطان ، والذى كان يتبعه أمراء دوادارية أقل رتبة منه ، منهم « دوادار ثان » من أمراء الطبلخاناه ، ودوادار صغير ، وكان أحيانا من الأجناد (٤) .

وإذا كان صاحب وظيفة « أمير دوادار ثان » من أمراء الطبلخاناه وكانت له هذه الألقاب « المقر العالى المولوى الأميرى الكبيرى » وهى ألقاب أشرنا إلى استخدام أمراء المئين لها فإن ذلك يشير إلى أمرين : الأمر الأول هو عدم إحتفاظ الألقاب فى نهاية العصر المملوكى بمكانتها الرفيعة ، والأمر الثانى هو إحتمال استمرار صاحب الوظيفة فى وظيفته بعد

---

(١) أنظر : حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، ج١ ، ص ٢٥٧ – ٢٥٨

(٢) أنظر : حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ١٨٦ – ١٨٨ ، ص ٤٣٦ – ٤٣٧

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، ١٠٨

(٤) حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، ج١ ، ص ٢٢٠ – ٢٢١

الإنعـام عليه بتقدمـة ألف ، أو أن يتـولى هذه الـوظيفـة بعد الإنعـام عليه بهذه الـرتبة ، كـما حدث لقان بردى اليوسـفى فى رجب سنة ٩٠٦ هــ ، والذى قرر فى الدوادارية الثانية عوضـا عن طرابـاى الشـريفى بـعد إنتقاله إلـى الرأس نوبية الـكبرى [١] ، أو كمـا هـى الحـال مع تـنم الأشـرفى الذى كان « عـين مقدمى الألـوف » ويشـغل وظـيفة حاجب ثان بالشـام والتى كانت وظيفة من وظائف أمراء الطبلـخاناه [٢] .

وتتألـف كلمة « دوادار » مـن « دواة » العربية وهـى ما يكتـب منه ، و « دار » الفـارسـية بمعنى ممـسك ، والمعنى الكـلى ممسك الدواة أو الموكـل بالدواة أى بدواة السـلـطان أو الأمير وقد تـطورت هـذه الوظيفة فـى عصـر المماليك ، وازدادت أهـميتها ونظمـت أختصـاصاتـها وتفـرعت رتـبهـا . وكان الدوادار يـختـار من بـين الخاصـكية ، ثـم أخذت رتـبة الـدوادار تزداد تدريـجيا حـتى صار مـن أمراء المئين ثم من أكـابر أمـراء المئين . ولـم يكن لـلسـلـطان دوادار واحد فـقط ، بل بـلغ عدد الـدوادارية عشـرة من الأمـراء والجند تتصـاغر رتبهـم الواحـد عن الآخر ، وكـان أعـلاهـم الدوادار الـكبيـر الذى صـار يسـمـى أيضا أمـير دوادار أو أمـير دوادار كبير ، وكان عادة فى رتـبة أمير مائة ، وكان أقل منه مباشـرة نائبه ، أو الدوادار الثانى وكان كما أشرنا أمير طبلـخاناه أو أمير أربعين ، ثم أقل منه الدوادار الثالـث ، وكان أمير عشــرين أو أمير عشـرة ، وهـكذا على التوالى حتى الـدوادار الصـغير وكان مـجرد جندى أو مملـوك من الخاصكية .

ويبدو أن صـيغة « دوادار » قد ظلـت هـى الصـيغة الرسمية للوظيفـة حتى بداية القرن التـاسع الهـجرى (١٥م) علـى الأقل أمـا صـيغـة أميـر دوادار فقد وردت ضـمـن كتـابات أثـرية ترجع إلـى أواخر القرن التاسـع الهجرى . ومن المحتـمل أن صـيغة أميـر دوادار أو أمير دوادار كبير قد صـارت هـى الصـيغة الرسـمية لكبير الدوادارية فى أواخر عصر المماليك بعد أن صار يشـغل هـذه الوظيفة كبار أمراء المئين الذين اتسـعت سلـطاتهم وتصـرفوا تصـرف النواب [٣] .

وإذا كانت الألـقاب هنا تـشير فى وضـوح إلى أن صـحن جـان بردى قد عمـل فى أواخر عصر المماليك الجراكسة فإن الرنك المركب الذى اتخذه صاحب الصـحن يؤكد هـذا الأمر .

والرنك هـنا يتكون – كمـا أشـرنا – من ثلاث مـناطق أفقية ، بالمنطقة العليا بقجة ، وفى الوسـطى كأس بها دواة بين فرعى سـروال أو قرنى بارود ، وفى السـفلى كأس صـغير ، وهـذا

---

(١) ابن إياس : المصدر السـابق ، ج٣ ، ص ٤٧٠

(٢) Mayer, Op. Cit., PP. 215 F.

(٣) أنظر : حسن الباشـا : المرجع السـابق ، ج١ ، ص ٢١٦ – ٢٢٢ ، ج٢ ، ص ٥١٩ – ٥٣٦

(الرنك) – كما أشرنا أيضا – رنك مركب شاع استخدامه برموزه المذكورة كشعار عام للجماعات العسكرية فى القرن التاسع الهجرى بين رنوك مركبة أخرى تختلف فى عدد رموزها وترتيبها ، إلى جانب الرنوك الكتابية التى اقتصر استخدامها على السلاطين باستثناء حالة واحدة استخدم فيها لأحد الأمراء وهو دولاتباى (١) .

والبقجة فى رنك جان بردى – هى – كما أشرنا من قبل – رنك الجمدار . وتعنى البقجة بالدلالة التى استخدمت بها على الرنوك قطعة قماش لها أربع زوايا توضع فيها الأمتعة ، ثم تربط أطرافها الأربعة (٢) ، وقد استخدمت على الرنوك على هيئة مربع ذى أركان مرتفعة أو معين ، ورسم فى وسطها أحيانا شكل وريدة (٣) ، كما رسمت مفردة أو مشتركة مع رموز أخرى (٤) ، وقد يتضمن الرنك بقجتين (٥) .

أما المنطقة الوسطى من رنك جان بردى فتضم الكأس ، وهو رنك الساقى ، وقد أشرنا إلى ذلك وبالكأس شكل الدواة ، وتتكون هنا من موضعين لأقلام البوص ، وموضع يمثل مرملة الكتابة ، ودائرتين تمثلان موضعين للحبر والنشا ، ثم فراغ لقطعة من القماش لتنظيف الأقلام (٦) . وقد يختلف شكل الدواة فى رنوك أخرى كأن يكون بها ثلاثة مواضع للأقلام ، كما قد يختلف موضعها فى الرنوك المركبة ، فنجدها بالكأس – كما هى الحال فى رنك جان بردى ، أو نجدها بجوار الكأس فى المنطقة الوسطى (٧) . وقد يغلب ظهورها بمفردها بمنطقة من المناطق الثلاث للرنك . أما الشعار المسمى بقرون البارود أو سراويل الفتوة ، والذى يحيط بالكأس فى المنطقة الوسطى من الرنك فقد اجتهد كثير من العلماء

---

(١) Mayer, Op. Cit., P. 39.

(٢) أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ، ص ٤١ – ٤٢

(٣) Mayer, Op. Cit., P. 30, No. 30

(٤) Ibid., P. 30 , Nos. 5,15, 21,31,32 38, 42, 43.

(٥) Ibid., P. 30, Nos. 5,12, 18,21, 31 - 33,38,47, 52;

وانظر أيضا : أحمد عبد الرازق أحمد : المرجع السابق ، ص ٧١

(٦) Mayer, Op. Cit., P. 12;

أحمد عبد الرازق أحمد : المرجع السابق ، ص ٦٩

(٧) Mayer, Op. Cit., P. 30, No.22.

فى تفسيره [١] . ومن المرجح أنه يمثل لباس الفتوة أو سراويل الفتوة التى كان يلبسها رماة البندق الذين كان يشرف عليهم ويحكم فى المباريات بينهم «حاكم البندق» أو « الحاكم فى البندق » [٢] . وربما كان هذا الشعار يدل على القرن الذى كان يحفظ فيه البارود ، وذلك لأن أول ظهورها كان فى رنوك الثلث الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى عندما عم استعمال البارود فى الأسلحة [٣]

ويظهر رنك « جان بردى » على كثير من الآثار المؤرخة أو التى يمكن تاريخها بنفس الهيئة وتشهد هذه الآثار على غلبة ظهور هذا الرنك فى أواخر عصر المماليك الجراكسة ، كما يلاحظ من خلال النصوص المسجلة عليها إختلاف وظائف أصحاب هذا الرنك الذى كان كما ذكرنا شعارا عاما وليس رنكا شخصيا . ومن هذه الآثار :

١ – المدرسة الأشرفية بالقدس ، ويشير النص المصاحب للرنك إلى السلطان قايتباى « والأشرف الناصر سيدى محمد الخازندار ناظر الحرمين الشريفين » . أما التاريخ فهو مستهل ربيع الأول سنة ٨٧٥ هـ . وسيدى محمد الخازندار ناصر الدين محمد بن النشاشيبى خازندار قايتباى الذى عين ناظرا للحرمين الشريفين فى محرم سنة ٨٧٥ هـ (يولية ١٤٧٠ م) ، وتوفى بعد سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٨ م) [٤]

٢ – صينية من النحاس المبيض بالقصدير بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة [٥] ، وهى للسيفى بلباى العلائى كافل المملكة الصفدية ، وقد تولى وظيفته كنائب لصفد فى سنة ٨٧٥هـ (١٤٧٠ – ١٤٧١ م) ، وتوفى فى رجب سنة ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م) ، ويقع تاريخ الصينية بين هذين التاريخين [٦] .

٣ – صحن من النحاس للسيفى يشبك من مهدى أمير دوادار كبير وليشبك أيضا نفس الرنك على بوابة قصره المعروف بحوش بردق مع التاريخ الذى يشير إلى رمضان سنة ٨٨٠هـ ، ووظائفه : دوادار كبير وباش العساكر المنصورة ومدبر الممالك الإسلامية ، وقد عين فى وظيفة دوادار كبير فى سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) ، وتولى وظائف الوزارة

---

(١) Ibid., PP. 19-22

(٢) حسن الباشا : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٤١٥ – ٤١٦

(٣) محمد مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ ؛ أحمد عبد الرازق أحمد : المرجع السابق ، ص ٧٧

(٤) Mayer, Op. Cit., PP. 162 F.

(٥) رقم ٤١٢١ بسجلات المتحف .

(٦) Mayer, Op. Cit., PP. 112 F.

والأستادارية ثم باش العساكر وأمير سلاح وكاشف الكشاف ومدبر المملكة فى سنة ٨٧٣ هـ ، وتوفى فى العشر الأواخر من رمضان سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) (١) .

٤ – ثريا بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة برسم السيفى قجماس أمير أخور كبير (٢) وهو قجماس الإسحاقى . ويوجد نفس الرنك بمسجده بالدرب الأحمر . وقد عين فى وظيفة أمير أخور كبير فى جمادى الأولى سنة ٨٨٠ هـ (١٤٧٥م) ، وعين بعدها نائبا للشام فى سنة ٨٨٥ هـ ، وكانت وفاته فى سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) (٣) .

٥ – سلطانية بمجموعة ساسون Sassoon بلندن للسيفى أقبردى أمير دوادار كبير ومدبر الممالك الشريفة الإسلامية ، وهو أقبردى من على باى الذى تولى الدوادارية الكبرى بعد يشبك من مهدى سنة ٨٨٧ هـ ، وولى وظائف عديدة أخرى منها إمرة السلاح والوزارة والأستادارية وكاشف الكشاف ، كما عين نائبا لطرابلس فى سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٩م) وهى السنة التى توفى فيها (٤) .

٦ – صحن من النحاس المبيض بالقصدير بمتحف بناكى بأثينا ، ويشير النص حول الرنك إلى قانيباى ملك الأمراء ، وعلى ظهر الإناء نقش باسم أقباى ملك الأمراء بالشرقية ، والذى آلت إليه ملكية الإناء . وكان أقباى كاشفا للشرقية ، ثم قرر فى نيابة غزة فى ذى القعدة سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) (٥)

٧ – سلطانية من النحاس مبيضة بالقصدير برسم قانصوه الغورى أمير حاجب الحجاب بحلب ، وقد شغل الغورى هذه الوظيفة إعتباراً من سنة ٨٩٤ هـ حتى سنة ٩٠٣ هـ (١٤٨٩ – ١٤٩٧ م) (٦) .

---

(١) أنظر ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٧٣ ؛

Mayer, Op. Cit., PP. 251 FF.

(٢) رقم ٢٤٢ بسجلات المتحف .

(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٥٥ – ٥٦ ، ١١٠ ، ١٧٥ ، ٢٤٣ ؛

Mayer, Op. Cit., PP. 174 f, pl. LXIII.

(٤) أنظر : أبن إياس : المصدر السابق ، ص ٤١١ ، ٤٢٠ – ٤٢١ ؛

Mayer, Op. Cit., PP. 65F, pl. LXII,1

(٥) أنظر إبن إياس : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ؛

Mayer, Op. Cit., PP. 175 F.

(٦) أنظر : ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٤٥٣ ؛ ج٤ ، ص ٢ ؛

Mayer, Op. Cit., PP. 178 F.

٨ – مسجد تنم الأشرفى بدمشق ، وبالنص المصاحب للرنك اسم تنم الأشرفى عين مقدمى الألوف وحاجب ثانى بالشام المحروسة وتاريخ سنة ٨٩٧ هـ [١] .

٩ – صحنان من النحاس المبيض بالقصدير ، على أحدهما اسم تانى بك أمير خازندار كبير ، وعلى الثانى اسم تانى بك الخازندار ، وتانى بك هو أحد إثنين ، أولهما تانى بك الخازندار الذى توفى فى شوال سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٤ م) [٢] . والآخر هو تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين والذى أعدمه السلطان سليم فى السادس من ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) [٣]

١٠ – طشت من النحاس لجان بلاط من يشبك « أمير دوادار المقام الشريف » . وقد عين جان بلاط مملوك يشبك من مهدى فى وظيفة أمير دوادار فى ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٦ م) ، ثم عين نائبا لحلب فى ربيع الثانى سنة ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م) ، ويقع تاريخ الإناء بين هذين التاريخين [٤] .

١١ – سلطانية من النحاس المبيض بالقصدير للسيفى طقطمش الدوادار فى عصر جان بلاط (٩٠٥ – ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ – ١٥٠١ م) [٥]

١٢ – إبريق عليه اسم جوهر المعينى أمير رأس نوبة الآدر الشريفة ، وهو زين الدين جوهر الحبشى والذى سمى بالمعينى على اسم معين الدين الدمياطى ، وكانت وفاته فى سنة ٩٠٥ هـ أو ٩٠٦ هـ [٦] .

١٣ – صينية من النحاس مبيضة بالقصدير للسيفى سيباى ملك الأمراء بالشام . وهو سيباى من بختجا ، وكان نائبا للشام من سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) حتى مقتله فى معركة مرج دابق ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) [٧]

---

(١) Mayer, Op. Cit., P, 215

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٠٤

(٣) المصدر السابق ، ج٥ ، ص ١٦٩ ؛ وانظر

Mayer, Op. Cit., P. 218

(٤) أنظر : ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤٧٢ ؛ الغزى : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٧١ ؛

Mayer, Op. Cit., PP. 127 F.

(٥) Mayer, Op. Cit., P. 234

(٦) أنظر : ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤٥٦ ؛

Mayer, Op. Cit., P. 134

(٧) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٤٥ ، ٤٧٠ ؛ ج٥ ، ص ٦٩ ؛

Mayer, Op. Cit., PP. 207 F, pl. LXII,3.

١٤ – طشت بمجموعة ساسون بلندن للسيفى تمراز نائب قلعة حلب المنصورة ، وكان نائبا لها فى سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ – ١٥١٣ م) (١) .

١٥ – بعض عمائر خاير بك بن ملباى الجركسى الذى تولى نيابة حلب فى سنة ٩١٠ هـ ، وتوفى فى ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) ، والتاريخ الوارد بالنصوص التى على آثاره فى حلب هو ٩٢٠ هـ (٢) .

١٦ – صينية من النحاس مبيضة بالقصدير بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة (٣) . ويحمل النص حول الرنك اسم خدا بردى ، وعلى ظهر الصينية نص آخر حفر بعد حفر النص الأول بعدة سنوات ، وبه اسم خدا بردى الأشرفى كافل الثغر السكندرى . وعين خدا بردى نائبا للإسكندرية قبل سنة ٩٢٢ هـ ، ففى هذه السنة حل محله تنم السيفى مغلباى . وقد قتل خدا بردى فى معركة قرب بيسان فى ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) (٤) .

ومما تقدم نرى أن ثمة أكثر من شاهد يدفعنا إلى تأريخ صحن « جان بردى » بنهاية العصر المملوكى . وفيما يتعلق بشخصية صاحب هذا الصحن فإننا نرى أنه إن لم يكن شخصا لم تحدثنا المصادر التاريخية عنه فإنه ربما يكون أحد إثنين هما :

– جان بردى الغزالى الذى تحدثنا عنه ، هذا رغم أنه لم يرد ما يشير إلى توليه وظيفة دوادار ثان ، كما لم يرد ما يشير إلى أنه قد بدأ وظائفه خارج مصر بتولى أية وظيفة بطرابلس .

– جان بردى الذى عين « رأس نوبة ثانى » فى جمادى الأولى سنة ٩٠٦ هـ ولم يرد عنه شىء سوى توليه لهذه الوظيفة .

---

(١) Mayer, Op. Cit., P. 229 , pl. LXII, 5 and 9

(٢) Mayer, Op. Cit., PP. 136 F.

(٣) رقم ٤٤٥٦ بسجلات المتحف .

(٤) أنظر : ابن إياس : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ١٢٩ ؛

Mayer, Op. Cit., P. 140

وأنظر أيضا رنك كل من على بن محمد ، وعلان المعزى ، وحليمة بنت النانق ، وخاير بك من إينال ، وخشكلدى ، وماماى بن خداد ، ومحسن الخازن ، وقانيباى البواب وقانصوه ، وسيباى من جانباى ، وطغرى ورمش ، وتمرباى اليحياوى ، والماس ، وفارس فى

Mayer, Op. Cit., PP. 56 F, 59 , 120 , 138 F, 141 F, 153 , 166 F, 176, 178 , 208 , 214 F, 231 F, 242 , 265 and pls, LXII, 7,8,11 and 13.

وأنظر كذلك الرنك نفسه على صينية من النحاس بواشنطن ، وعلى قطعة من النسيج المملوكى بمتحف المتروبوليتان :

Atil, OP., Cit., 108 , 240 , Nos, 39 , 124.

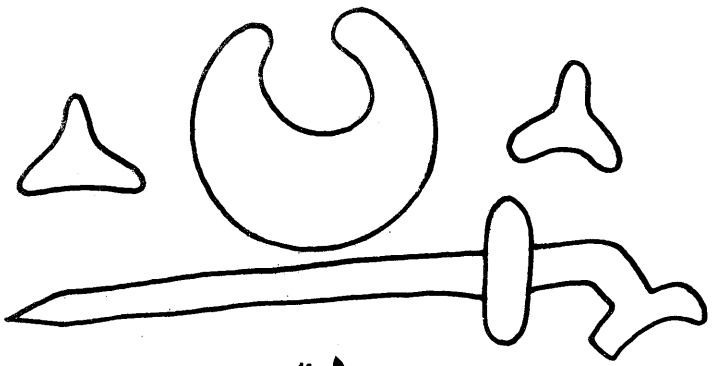

" أ "

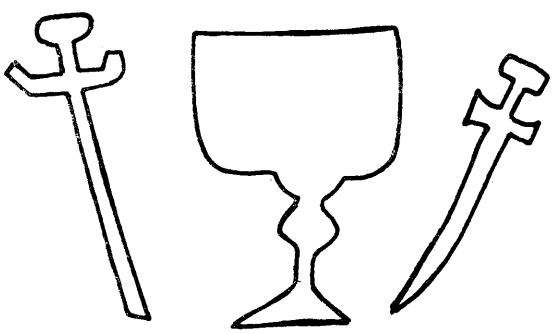

" ب "

الشكل (١) رنوك الآنية رقم ٢٣٨٣١
بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة (عمل الباحث)

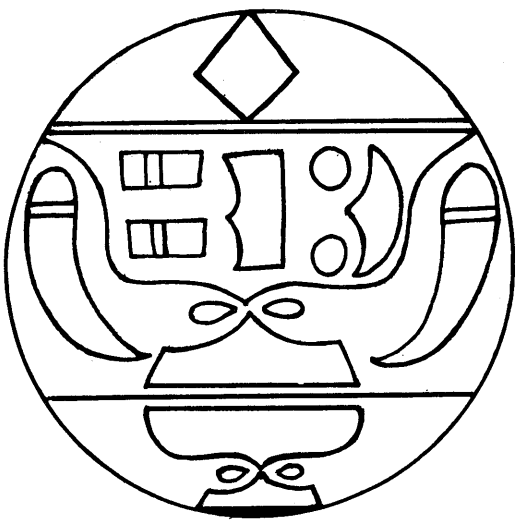

الشكل (٢) الرنك المركب على صحن جان بردى
رقم ٢٣٩٠٧ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة
(عمل الباحث)

اللوحة (١) قلة من الفخار . حوالى ٩ هـ (١٥ م)
رقم ٢٣٨٣١ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

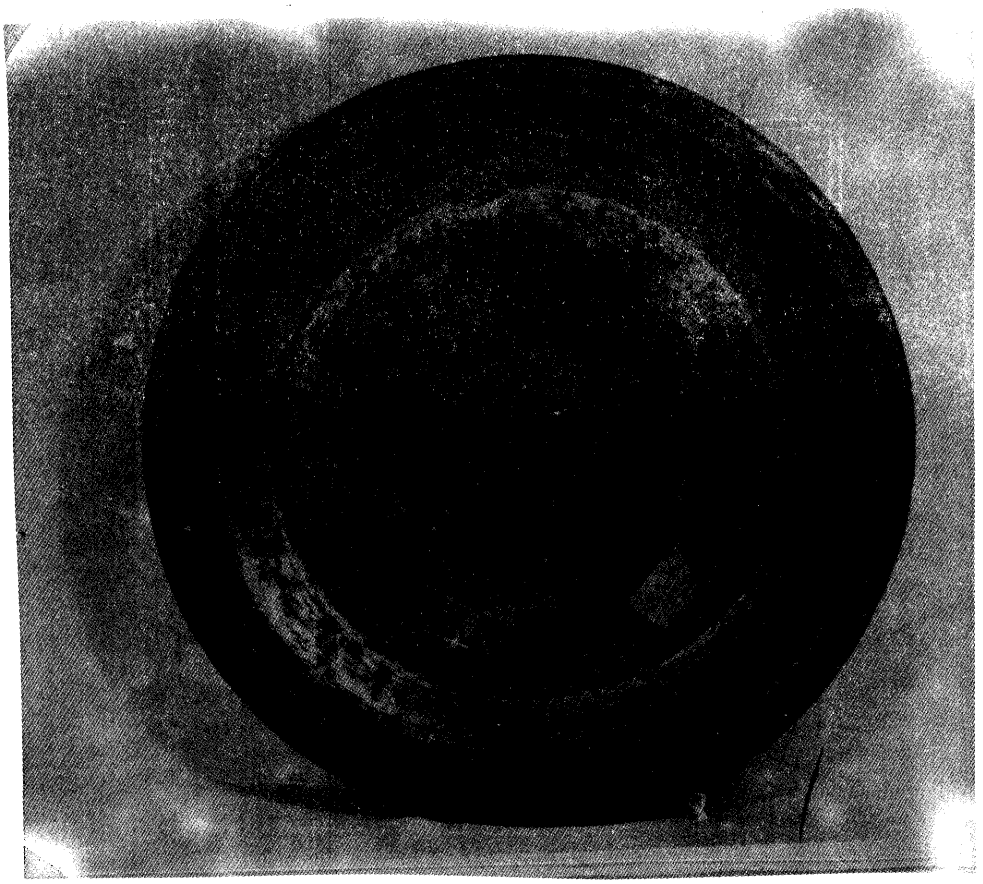

اللوحة (٢) صحن جان بردى . نهاية العصر المملوكى
رقم ٢٣٩٠٧ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة